



شعبان سنة ١٣٢٢

غرائب الغرب

الرحيل من دمشق إلى لبنان

١

كان من أعظم أمني النفس منذ بضع سنين أن أرحل إلى أوروبا رحلة عنية أقضي فيها راحة من الدهر لتوفر علي دراسة حضارة الغرب في منبتها واستطلاع طبع المعاهد التي نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المزهرون والعنقاء العامينون والساسة المستعمرون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهبولاها.

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن إتمامه وتحول دون البغية المنشودة إلى أن قدر الله فأقام والي سورية السابق تلك القضية المنققة على جريدة القيس واحتال انتقاماً لنفسه لأفعال المطبعة وتوقيف الجريدة والجنة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان

وقت الرحلة في طلب العلم نضرغ لتحقيق ما في الخاطر ريثما يتبين الحق من الباطل من العاقل وعسى أن تكرموا شيئاً وهو خير لكم.

في المزيغ الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧) ركبنا من دمشق عربية مع صديقين عزيزين قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات إلى أن وصلت فرسي ووصل صديق لي راكباً فرسه فركبنا وعاد ذاك الحبيبان إلى المدينة. وكان بدأ في تلك الساعة الإشراق في الأفق والسكون لم يبرح مستحوذاً على الأرباض والرياض ولم تكن نسبع من بعيد غير قعقعة أجراس الطحانين والمكارين وصياح الديكة أو عواء الكلاب وما كدت أعلم من مطيحي حتى ترامى إليّ سمعي صوت مؤذن القابون ينادي هلنوا إلى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله فقلت كلمة منق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جينة تقال ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد.

التفت إلى الغوطة الدمشقية الثغاة أخيرة وهي أحب بقعة إلى قلبي في الأرض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من أيامها البيض والسود. ذكرت الغوطة الخيوبة وذكرت مطاعم البشر وانحطاط أخلاقهم وعقولهم فقاد ذلك إلى التفكير في شقاء الإنسان بالإنسان وموت بعض حياة كل وانقار مئات لا غناء أفراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعيب فريق لراحة أمة فتشلت لي عجب صنع المولى في خلقه سبحانه لا يبقى العالم عني حال هو المعز المذل القابض الباسط المغني للمفقر يقنب الأرض ومن عليها ولا يرثها إلا عباده الصالحون.

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعربا ولم تشرق الشمس إلا وقد قطعنا أراضي
معربا وأشرفنا على أكامها فالتفتنا إلى ما وراءها وقد تحلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج
من خلف الجبال فألقينا عليها نظرة الوداع وأغذذنا السير إلى بسية ومنها إلى دير مقرن
فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولم أشهد هذا الوادي وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاماً شيئاً من التغير
والارتفاع الخسوس فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة إن سلمت أشجاره من
لفحات الجنيذ يرتاش تلك السنة ويعتاش برمانه وجوزده وتفاحه وكشراه وتينه وعنبه
والا فيضطر في الأكثر إلى الاستدانة على الموسم المقبل وإن كان على شيء من القوة
والجند يرحل إلى بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر
الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الخنطة في كنه وكونه.

نودلك لأن هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردى لا يغل من الحبوب ما يسد
عوز سكانه بعض السنة لغلبة اليوسة على جروده وجباله ولأن أكثر تربته صخرية تحتاج
لعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي أكلها. أما الأشجار وبعض الخضر
والبقول التي يتفع بها الفلاح هنا فالفضل لنهر بردى في إروائها يأخذ من مائه في مجار
يعليها بقدر حاجته أو أكثر.

ولقد أخذت أثاث الفواكه تأتي بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ استشار
السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت - دمشق - حوران وسكة دمشق - حيفا - المدينة
وسكة دمشق - حلب - بيرة - حنك . (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر إلى الجهات القاصية

وكانوا يقدمون أكثرهما في سبي الخير علفاً للدواب أو يلقونها في الطريق لأن العطلة في نقلها من محنها إلى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم بأجرة المكار ودابته.

نعم لم أر ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى وأني يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ما حفرته أقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح منذ قرون. فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي ولعل ذلك ناشيء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لأقضية بعيدة أما الآن بعد أن غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد بات يرحى بفضل قائم مقامه الغيور أن تنظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليجمر للناس الغدو والرواح من أيسر السبل. وما أحوال ذلك معترداً على الحاكم إذا حث أهل كل قرية أن يقيموا بأنفسهم لتجهيز طريقهم أيام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها أو يعملونها بواسطة الموظفين الأمناء وإن كانت هذه الطريقة لا تخنو من محذور لأنها تؤدي إلى السخرة والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي. وتجهيز الطرق وبث الأمن من جهة الفروض العينية على كل حكومة.

وبعد فإنه لا وجود في وادي بردى لساكني المرافق التي يستع بها الفلاح في البلاد المتسدة وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يههها من الفلاح إلا أن تأخذ منه لا أن تقي له سبل الأخذ. فكان قصارهاها تكثير الجباية وتوفير الضرائب وأخذ من تريده للخدمة العسكرية أما أمتاع الأهليين بالوسائل الحصية وتعليبهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل الواصالات ورفع علم الأمن وتعليبهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت

أموراً لا تعرفها لا في وادي بردى فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها.

ومن أغرب ما رأيت في وادي بردى أن بعض قراها تحفر القبور لموتها أما الدور فترى حي الأحياء مع حي الأموات وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من أن تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها إذا حدودها بعيدة عن العمران ولو يضع خطوات أو أنهم يؤثرون دفن الموتى أما أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الإنسان إلى دار البقاء ويترددوا في دار الفناء فلا يهتدون بأسباب الهناء والصفاء.

ومما عمت به البنوى في الفلاحين أنك ترى القاذورات أيضاً تعبي العيون وتخلق الأنفاس فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخنفها وقدامها وعن أيمانها وشمالها. ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسنون بالتسلسل عن آباؤهم وشيء من جودة الهواء في الجمنة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الإقليم ومن حوله.

ركبت صيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيما مضى لنبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحبير. ولهذه الأسواق أمثال في أوروبا. وبالقرب من السوق تصق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه إلى مفتح وادي الزبداني. وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القسم والآكام.

ومن السوق انتهى بنا نفس السير إلى قرية عيت الفخار من أعمال البقاع العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنابير خاصة وتبيعه في المدن الداخلة من أعمال دمشق.

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطلعنا على عيتا ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سورية.

وعلمنا أن سبب ما شاهدناه من جهال المساكن في عيتا تلك الأموال التي جنبها بعض سكانها من هجرهم إلى أميركا وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالكفى ثانية في عيتا أن يظهروا غناهم بإنشاء الدور المنظمة ليصح عندهم المثل العربي أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها إن الغني طويل الذيل مياس أو الأثر المشهور إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وليس كاليوت تتم عن يسار وتدل على سعة. وبعد عيتا مررنا بكامد النوز فجب جنين قللا فبعول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالعريض وفي المعارض مندوحة عن الكذب.

وقد سرت إلى هذه القرية وإلى جميع قرى البقاع عدوى المهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين أن أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر إقنياً خاصاً لهم يتزلونه أو مكنة يوجهون وجهتهم إليها فيقصد مثلاً أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون يتزلون كندا وغيرهم أستراليا وفريق السنيغال فكان عدوى الانتقال تسري إليهم بالعشرة فلا يحب المواطن إلا أن يقند مواطنه في مآتبه

ومنازعه بل في شقائه وسعادته. وقد اذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون يتولون بلد كذا واليمنيون إقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الأندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد يتولونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن ذلك في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرهما المخرب المستد على نهر الليطاني وانجبدنا قاصدين حزين أول حدود لبنان إلى الجنوب. ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة إلى الآن بدبغ الجنود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وحزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعنو قمة عالية ثم تنحدر في واد عميق.

ومع أن قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته الخصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومتاخته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبت أرض البقاع من الحبوب والثمار ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولاً نموذجية حقيقية وصرفوا عليها الأموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تغنايل - مع كل هذا العمران المتبحر وما تأخذه النافعة من أموال الأهليين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكةً اللهم إلا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدي. وقيل لنا أن الحكومة صح عزمها مؤخراً على إنشاء طريق

عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشجرة في غربه وأن الطريق وصل أو كاد إلى قرية عيتيت ولعله جسماً لا اسماً كأكثر الطرق التي أنشأها النافعة في الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسماً بلا معنى لم ينشأ عنها إلا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العيران وخدمة الأوطان.

وصف لبنان الطبيعي

٢

كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح الألكندري احتاج إلى رواية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منها لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطرت إلى الظهور فيها لاجئ من محالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتبر لي درس حالة البلاد بدون حجاب.

فقد قيل اكنم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الأذكياء فتجدهم يحرسون كل الحرص على استطلاع طبع كل مصطاف بينهم أو سائح في جبالهم والوقوف على مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به. وربما كان سواهم عن الأخير قبل كل شيء لأن عامتهم متدينون جداً فهم يسرون إذا شعروا أنهم يتعارفون إلى رجل يشاكلهم في المعتقد. وأني لمن قضى عليه شدة إخلاصه في خدمة وطنه ودولته أن يصرح لهم بهويته وهو مشرد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً!

ودعني رفيقي غداة وصلنا إلى جزين وعاد إلى الفيحاء وبقيت وحدي لا ريق لي إلا كتابي وفرنسي. فانقلب لساعتي من جزين قاصداً دير القنر فاجتزت إليها تاتر وعماطور والمختارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغابة تمشي فيه وسط

أشجار الزيتون وهي غابات غيباء في الشوف كما أن أشجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن. ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت إليه قيل الغروب وقد بدت القصة بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حنيها وعكست شمس الأصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاحتلظت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان أجمل منظر تقع عليه عين إنسان. وأهل الدير كنظم سكان الجبل موصوفون بالرفقة وحنن العشرة بتحيون إلى الغريب كيف كانت حاله. وفي هذه القصة إلى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الدير يورح حصون على سلامته فيتعهدونه بالعنارة وإن لم يكن له من يقيم فيه الصلاة.

وقصة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها أشبه بالمدن منها بالقرى وهي مشهورة بتجارة الخنطة تحمل إليها من حوران فتوزع في الأطراف. وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الأقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها إلى خمسة وثلاثين. وتكثر النفوس في هاننا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعديات وبيت شباب وبكفيا وبسكتا وبعبداء والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبل واهج وتنورين وعشيت وغزير وجونية وكفر ذبيان والبترون واهدن والمهرمل وأميون وزغرتا وكوسيا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالألوف والمئات.

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في ائحال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وستة وخمسين قرية (١) إلا بقصر فخيم جبل واسع

الأرجاء محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية وغرفته الكثيرة تلك الدساكر
والضياء لا يكاد التجول يمل من مقصورة حتى ينتقل إلى أخرى وما أسرع وصوله إليها
من تلك الطرق المعبدة وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تخصص به يد الصانع
من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده.

معنى لبنان الأبيض وهو اسم عبراني سمي به لتعم قمته بالثلج في الشتاء والربيع وبعض
الصيف. وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال النابغة الذبياني:

حتى غدا مثل نصل السيف منصتاً ... يقررو الأماعر من لبنان والأكما
وقال أحمد بن الحسين بن حميدة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من اخلائين:
دعوني لقاء في الحرب أطفو وأرسب ... ولا تسبوني فالقواضب تنسب
وإن جهنت جهال قومي فضائلي ... فقد عرفت قضني معذ وعرب
ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضباً ... فمن بعض ما بي ساحل الشام يغضب
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقاً ... وأموه لبنان ألد وأعذب
فمالي وللأيام لا درّ درهما ... تشرق بي طوراً وطوراً تغرب
وأنشد المتنبي في مدح أبي هرون بن عبد العزيز الأوراجي في قصيدة:
بيني وبين أبي علي مثله ... شمّ الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف يقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء
وقال البحتري:

وتعددت أن تظّل ركابي ... بين لبنان طلعاً والسنين
مشرفات على دمشق وقداء ... رض منها بياض تلك القصور

وقل الجغرافي البيه ركلو من المتأخرين يصف (١) لبنان: إذا ما ألقيت بعصرك من البحر إلى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فينوح لك أزرق أو وردياً في الصيف ومشتتلاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي وإذا تصاعدت الأبخرة في الجو ألبست قممه الشامخة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في النطف بيد أن جمال هذا المنظر لا يخلو من سطوة الشدة فترى ذاك الجبار يتسطى بضوئه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم على أن النظر إلى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلو متراً أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة. أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد.

وقال الأب لامنس: إن لبنان أشبه بمجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هياكل شتى من آكام وبطون وسهول وربي متسلسلة يدخل بعضها في بعض وإذا استثنينا هذه التفرعات الثانوية والتجعدات المنتسقة تحققت أن سلسلة لبنان العظيمة قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة ولذلك قلنا نرى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين وإنما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الأفق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه. ووصف شكله أيضاً فقال: ومن تفرع الجبل من الجنوب إلى الشمال وجده يتزايد عنواً وكذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلومتراً ومعظم اتساعه بين

طرابلس والهرمل ٤٦ كيلومتراً فيكون لبنان على كل ذاك شكل مربع منفرج عن زاويتيهِ العنويتين اد.

ولقد قدرُوا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر يحده جنوباً صيدا وأعمالها وشمالاً طرابلس وكورها وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت. هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والأصل في التسمية. ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون) أي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما إليهما والبقاع فاصل بين اللبنانيين. وحده القدماء فقالوا: (١) أنه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالأردن فهو جبل الجليل ودمشق سمر ومجلب وحماة وحمص لبنان ويتصل بأنطاكية والمصيصة فيسى هناك النكام ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر فيسى هناك القبق قال وفي لبنان سبعون لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير أن يزرعها أحد وفيه يكون الأبدال من الصالحين. وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان إلى الشمال ويجاور دمشق وإذا صار في شمالها سمي جبل سمر.

وعنى ذكر الصالحين نقول أن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس إلى العبادة فيه قال ابن جبر في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه: وكل من وقفه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم أن أحب ضيعة وينتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فينقى بها المريدين النقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء

وينصرف إلى حيث شاء. ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد النقطتين من المسلمين جنّبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل ما يخلو من التل والعبادة. وقال ابن بطوطة في القرن الثامن: إن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من النقطتين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهر بذلك ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشهر اسمه.

فقدنا ولذلك نرى المعروف اليوم بالإحصاء أن في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تحنو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبات والأديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين.

وهو نحو ثلث أيراد لبنان بأسره. وفيه الخابس التي ينقطع فيها النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة أو مكان منفرد يتعبدون في الخلاء. زرت أحدهم في مديرية القاطع فرأيت متوفراً على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة. ولو قام كل امرئ بالواجب عليه فسعى للنعاش سعي هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها. وهذه الخابس (١) قديمة في لبنان ترد إلى عهد هيلاريون الناسك أو قبله وفي عدلون بين صيدا وصور على مقربة من صرند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم.

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعاً بعمرانه لها بطبيعته فكان عنو قممه - وأعلامها ظهر القضيبي عنوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين وعنوه ٢٨٠٦ متراً وأعنى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية إلى كثرة الثلوج والأمطار فيه فيكون من عصاراتها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم في عمران الشام

فمن سفوح لبنان تنبعس أعظم أنهار سورية فنهر العاصي الذي يروي أراضي وادي حمص وحماة وأنطاكية ينبع من الهرمل في شمال لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد عيدا وصور وتنفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر أبي عني ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها ينبعان من السفح الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضاً. ومن لبنان الشرقي ينبع الأردن الشريعة كما ينبع من غرب لبنان الغربي نهر إبراهيم.

فلبنان في فائدته لسورية أشبه بجبال الألب في سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع. وللألب والنيل المثل الأعلى. وفي لبنان عدة ينابيع منها نبع الأربعين ونبع صنين وبنقيع والنبن والعسل والباروك وعين زحلنا وقد زرت هاتين الأخيرتين.

وصلنا إلى الباروك في زهاء ساعتين من دبر القصر مازين بيت الدين مركز مصرفية لبنان الصفي وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج قليلاً تتبع عينها على قيد غلوة منها أما المصطفون فيها فيختارون في الغالب العزل بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المثلثة على آكام الباروك وجبالها فيوفر

لم بذلك إلى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن - طيب الهواء ونسيم الأرز والصوبر العليل البليل. ومن الباروك إلى عين زحنتا ساعة على الراكب وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين إليها لنتع بنع الصفا وقاع الريم النذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بحمال موقعها وخصب واديها وحراجة الغياء. وعين الباروك وعين زحنتا على مسافة واحدة في العنوا وماؤها يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحنتا إلى عين صوفر ماراً بطريق السمكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقرية.

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنابل فصليما فعدات فبحسن فكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة. وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ربحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياماً رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصداً القطر المصري فأوربا. هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحنتا فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الأفضية الثلاثة الأخرى وهي جزين والشوف والمق خفيقاً بأن أتكلم على الجبل خصوصاً ولم يتقصني منه إلا قضاء الكورة فقط.

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلاً حصيناً كل من سادته يكون في الأعم من حالاته إلى الشدة والمضاء يحب من يسودهم وقد يحب به جيرانه من أهل البلدان

الأخرى. ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخصوصاً
للفريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام.
والغالب أن قاصيته خضعت للفيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة
الأتوريين العربية في عد الروم. والأتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب أنكفاً
من حوران والنجاح بلادهم ونزل البقاع فأنشأ له مدينة شاليس أو عين جر جعلها
عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم إلى الأمام حتى تيسر له أن تسور قمه
وأخضعه لسلطانه ثم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١)
وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الأتوريين سكان جبيل وبيروت فتم يكونوا يملكون
معهم لأنفسهم طولاً ولا حولاً.

نعم خضع هذا الجبل للفتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى
بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأتوريين فزَل المردة (٢) في الشمال أوائل القرن
الأول للهجرة ثم جاء الصوخيون ونزلوا جنوبه وتوالى عليه الأمراء المعنيون قال عساف
التركيان ومن سلالة المعين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح
سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المنطقي الثاني ومن
أمراء لبنان جان بولاد (جنبلط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر.
وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس أوائل القرن السابع للهجرة
يطبقون أيدي اعتدائهم على أبناء السيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان
عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنين كما سماهم أبو الفداء
وجيوش التار التي اهتمت على هذه البلاد كالسيل الدمر إن نجا المسلم من التري لا

ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً برعاية جمال الدين أقرش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطاً من النصرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام (١) الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الأكراد لحفظها. فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب يتأذون من بأس الأيتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لأنفسهم طويلاً ولا حولاً.

نعم خضع هذا الجبل للفتاحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأيتوريين فزل المردة (٢) في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التتوخيون ونزلوا جنوبه وتوالى عليه الأمراء المعينون قال عساف التركمان ومن سلالة المعينين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح

سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المنطقي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر. وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس أوائل القرن السابع للهجرة يطينون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأتداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي اتهالت على هذه البلاد كالسيل العرم إن نجا المسلم من التتار لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تينية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فنما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً برعامة جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطاً من النصرانية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام (١) الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصرانية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الأكراد لحفظها. فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا إليها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب

ويدمجهم في جهنهم حتى بلغوا الجنوب واحفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والإباء.

وزعم بعضهم أن الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لأنه لا يوجد بين أديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وأن جيل والبترون كانتا عنى الحيداء مع الصليبيين فلم تحازا إليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد إلا أن هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالاة الموارنة للصليبيين ودلالتهم عنى الطرق ونجدقم (١) لهم وثباقم معهم عنى العهد إلى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل أمهدن وبقوفا وحصرون وكفرسارون والحدث.

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكونه عنى النحو الذي كانت عنده صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات. يقوي اللبنانيون تارة والقيون أخرى والناس معهم في أمر مريح ومن التحزبات القيسية والبنانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاي اليني. قال المقريري وعشير الشام فرقان قيس ويعن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم عنى بعض.

ونشأ حزب آخر وهو الحزب الزيبكي نسبة إلى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجن بلاطي نسبة إلى الشيخ علي جن بلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩-١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالعنوفي والمكاريمي ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتق فشق فيها الدماء وتكثر

الأيامي والإماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سبباً في تخريب الجبل أيضاً.

ومن الوقائع التي يثبت فيها الأطفال تلك الواقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب أن غلب بعض أمراء لبنان الصرة السنطانية من جون عكا بينما كانت محمولة إلى الأستانة فجمع إبراهيم باشا صهر السنطان مراد بن السنطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحنبل وقدم بها مرج عرجوش قرب زحنة وأمسك طريق البحر والبقاع عنى الدروز فقتل نحو مئة منهم وأسروا بعض الأمراء.

وما زالت حال الجبل في إقبال وإدبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خندة ثم فتنة برج الغنول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النسوي والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة لنجل امتيازات وقسمته في السنة التالية إلى مقاطعات. وتعرف الأولى (١) بقائم مقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا إلى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولوها الأمير حيدر إسماعيل النعبي وتعرف الثانية بقائم مقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام إلى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى إقنيم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير أحمد عباس الأرسلاي أما قصبة دير القصر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي إيالة صيدا وكانت قائم مقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحنة وقائم مقامية الدروز تشمل قضائي الشوف وجزير وقسماً من

غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخنية اليوم في قضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس.

ودام الحال على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً إدارياً بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول. وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الأعناق.

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الأراضي الأميرية ورسوم الخاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعديل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع إليه العجز في ميزانيته.

وفي لبنان ألف جندي لبناني بإدارة أميرالاي اللبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني اشافظ و عندها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان.

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلاً ليتم لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور إلا أن معظم الأهليين يقاومونها وفاقم أن النيرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم إلا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الأسعار. وهم يعتبرون أن هذا العمل إخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الأمر إلى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا إلى مجلس الأمة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن

وطنتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا ومائت
أخوانهم العثمانيين في الغنم والعزم فليس من الإنصاف أن يبقى جلهم بدعوى قلّة خصبه
على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من أجزاء السلطنة العثمانية كيف
تقلب الحال وتعددت المظاهر والأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الأراضي
منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسائل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم
وأشجارهم وأكثر الأراضي مما يصنع للشجر أكثر مما يصنع للبقول والغلات شأن جبال
الأرض في الأكثر. وليس في الأيدي نص قديم يشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف
التاريخ غير ما نقناه في نبذة سألقة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه
والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع. وإذا كانت طبيعة
أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة
فيه أو تكاد تكون معدومة.

ولكن لم نخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز
والنوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزنان والسنديان والسرور والأرز
من الأشجار الغير مثمرة. وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز
لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولأن من خشبه بني قصر داود هيكل سليمان
والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيودوس وقبة

القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم. وقالوا أنه ثبت أن ملوك الآشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الأرز وأن المصريين أدخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وأن الاسكندر المقدوني وضع من خشب الأرز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية أدخلوا خشب الأرز في بناء دورهم.

وكل هذه الأخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الإسلام أساطيل من خشب الأرز وقالوا أن بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترساتها أو ورشها) وبها عمر معاوية المراكب وجهاز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام واسمها العيصاء وقيل أنه عمر من الأرز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهاز أسطولاً أضخم من الأرز نفسه وتبعه غيره من ملوك الإسلام في اختيار الأخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مهنكة إلى أخرى وهو عطر الرائحة إذا وضع في النار ويحسن في الشم إذا مسسته بيده ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم وهياكلهم وقناطينهم ونصبهم.

والغالب أن الحكومة السالفة (١) القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستعملها لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصوبر وتسح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غره محله. وقد بدأ النقص في هذه الأشجار ولا سيما الأرز منذ خمسة قرون لأن

البنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان إذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره وإلى اليوم لا يزال من الأمثال السائرة في الجبل الله يقطع رزقه أي ما يملك من شجر والله يخرب رزقه أي بيته.

مثال ذلك أن الأمير أحمد المعني طرد المشايخ الحماديين المتأولة لما كثر بغهم في كسروان ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدهم (٢) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه إلى قرية عين زحنا من شوف

صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديق أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته. قلنا ومثل ذلك ما نشاهد في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم منتزعي الأعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها أضعافاً مضاعفة ولم يبرح شجر الأرز موجوداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه إليها نحو ٢٥٠ شجرة يسوقها الأهل وأخرى فوق الباروك غير منخفة وضعيفة النسو لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرهما لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبل من بلاد كسروان

وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقليل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منها نحو خمسة عشر متراً وارتفاع أطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرها بثلاثة آلاف سنة. ولا أثر الآن في سورية لشجر الأرز إلا في أعالي سمر بيلاض الضنية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سمر ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسى عند أهله تنوب.

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الأرز أو أي كان من شجر الاحتطاب في الأماكن الخالية ولا سيما في القسم والقفن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محدودة وكان مع طول الزمن لأبن لبنان من أشجاره مود آخر غير التوت والزيتون مثلاً لأن شجر الأرز لا يوجد في الغالب إلا في مثل هذه لعنو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها.

وإذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بكثير الغابات في الأماكن الخالية ولا سيما في الخال التي يعرف أنها كانت غابات غيباء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الأمطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليومة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن المعنورة بهم ويصبح منهم بين نكبين سماوية بقنة الأمطار وأرضية بسطو ابن البادية على ما بقي لأبن القرى من رزق.

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني أن يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر عنه تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي عليها جيل إلا وتصبح سورية غنية بغاباتها كفى سويسرا أو أكثر والأشجار في بلادنا أكثر نمواً مما هي في أوروبا لما عرفت من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة أن كثرت اليوم هطال الأمطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كنما زادت أشجارها وعماسا تقتدي في سورية بهذا المثال.

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طاموا اشتطوا في مطالبهم وبطنت أو كادت السنطة الإفرادية الذوقية وقتت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلازل الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩م وعم لبنان كنه واستمر الموتان ثلاثين سنة (١) - منذ خفت العوارض الطبيعية والأرضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فتمت النفوس باستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنهم شيئاً من اللغات الإفرنجية والعنوم العصرية كما أن الموارد ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف إليه أحبارهم منذ قرون وربما انزع الجبل من هذه الصنة والعائد.

ثم أن طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتظيم والمسيحيون على الجبلنة يميلون إلى الرفاهية ويقدرّون طعم الحياة قدرها ولم يكد بدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطنّع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى أصبح ليده منها الآن نحو ألف كيلو متر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة الخسكة وقهى سبل التقل على المصطافين في ربوعه وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن لأنّه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم. وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواي شمالي لبنان.

وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من اللوليب وبنعت حاصلاته من الفياح (الشرايق) سنة ١٩٠٦ - ٢٠٢٧٠٣٠ أوقية ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا أن في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الأستانة وجزيرة سيسام (ساموس). وسكانه الآن زهاء أربعمئة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و١٦٠ ألفاً من الروم و٣٦ ألفاً من الكاثوليك و٥٥ ألفاً من الدروز و٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البرتستانت والباقون أرمن وإسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسائة من أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الأكف وقد أحصى غلينوس السوري في تاريخ الصنيين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على

عدد وفياتهم وأن هاجر كثيرون بعد ذلك إلى قبرص ورودرس والقدس ومالطة ولا يعد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم.

ولا يسعنا وقد وصنا من بحثنا في شؤون الجبل إلى هذا الحد إلا أن نرسل جنة في شغف اللبنانيين بالهجرة إلى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية أن المال فيها منقى عنى الشوارع لا يحتاج إلا لمن يمد يده ليتناوله مع أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر عنى طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هنكوا منهم لرأوا أن المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب.

والذي ظهر من قرائن الأحوال أن ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر إلى أميركا أو جراً سائر السوريين عنى الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الأميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولأن ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلماً ونوراً وأوفرهم نشاطاً ومضاءً وشماً وادلاً بل أن مجموع القارئين والكتابين فيه أوفر من مجموع القارئين والكتابين في مجموع مدن الشام.

وأول من دخل أميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القميس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨-١٦٨٣. وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلبيانوس الكفوري سافر إليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشلودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيلوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الإحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف إلى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة

فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وقدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يمكن أميركا وثلثهم يرجع إلى وطنه والثلث الآخر يموت. ونظن أن الثلث الأخير مبالغ فيه وإن كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل. وأحصي (١) عدد السوريين المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة وخمسون ألفاً في جمهوريات أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفاً في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أستراليا وبعض الجزائر والباقيون في افريقية والهند والفلبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفاً نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر.

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بإقدامهم وذكائهم المعهود فزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج إلى أيدي عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعنون ويذخرون ويقترنون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوربا مثلاً فأب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات النيرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر.

وكثر تقيد الناس بعضهم لبعض ومنهم من اشترى له أرضاً في بلده وطفق الآخر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل أما الأفراد الذين اغتروا فعدت ثروهم بالآلاف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً على المثل العامي في المطرح الذي فيه ترزق الصق وهم إن

كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا إذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبونس أيرس وسان باولو مثلاً وبين عشقوت وبسكتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجي البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسروهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم أن بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم عنى جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة.

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندى أن المضار أكثر من المنافع إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن. فقد يذهب ألف مهاجر مثلاً إلى بند كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعدون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفون أجره الطريق التي استنفوها من أحد المرابين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هنكوا بالأمراض وغرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها.

فإن من نظر في الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عبرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلاناً أصبح يملك كذا وكذا من النيرات وأن بند كذا يدخل إليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب - من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعرفه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال إذا دام عنى هذا المنوال وأموال أميركا لتسرب إلى بلادنا نصبح بعد بضع سنين

أغنى من الأمير كان وننقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية ليست السعادة بكثرة المال. السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم إنشاء البيوت وتزيينها وفي باطنها الشقاء والحسرة. قال لي عجوز في صليبا وقد سألتها أين رجالكم: ذهبوا إلى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عثروا لها لسرح فيها الفيران عادوا ليجعوا كمية أكبر من المال لأن ما جمعوه لم يكفهم لإتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم إن حالة البلاد لم تعجبهم بعد أن شاهدوا مشاهد أميركا. وقول هذه العجوز الذي أحزني مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء.

أي حسرة أعظم من أن تتوقع أم في كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه أو زوجة تنتظر منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطرب تلك المرأة المسكينة أن تعمل لينها ونهارها لتطعم أولادها من كدها وما هي بمفلحة. وأي بنوى أكبر من أن تدخل قرية وتجدها فيها عشرات من البنات العوانس ينتظرن عروساً لأن شبان الضيقة هاجروا وأكثرهم لا يريد أن يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة أميركية وزهد في أسرته وقريته لأنه تمدن بزعمه ولا يثق به أن يتزوج إلا من متدنة. ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات إلا في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل مئآت الهجرة انقطاع الأهليين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه.

وإن دعوى من يدعون أن لبنان لولا الهجرة لأصبح خراباً مردودة من وجوه أحدها أنهم يعتقدون أن تلك الأموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى

لبنان وما الثروة في الحقيقة إلا العسل ليس إلا. فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان تسرب المال إلى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعنور لأن هذا الملك كان يعتقد أن كثرة النقود والذهب في بلاد كف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنن حتى أمت اسبانيا أفقر بلاد أوربا لأن أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والأخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرفاعة من شأنهم.

إن انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين إلى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة إلى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبائهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم. ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله إذا زادوا ضعف ما هم الآن ومهنا بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد. ولا يشعر بذلك إلا أرباب الأملاك. مثال ذلك أن كلنة الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فأصبحت اليوم تساوي ستين على حين أن غلات التوت لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة أيدي العاملين وارتفاع أسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولأن المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً إلى عشرين أو ثلاثين جداً من أجداده إذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل إل معاناة الزراعة بل يفضل أن يعيش كما يعيش تجار أميركا وأرباب الأملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة إذا ظل عطلاً عن العمل.

في أمثال العامة أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحنجر حكمة لطيفة نافعة تصدق على اللبناني المهاجر فإذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الأعيان في عيشه ورفاهيته فمن

يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والأرز والسنديان والزان وحفر الأقنية والأحواض وتهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الأقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة.

ولقد قال الاقتصاديون أن جملة ما ساعد ألمانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية أنك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف إلا به فالألمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والفائد العظيم وكل واحد منصرف إلى عمله لا تحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولو جرى أهل بلادنا على هذا المثال لأصبحنا بعد جيل أمة راقية حقيقية ولما رأينا الصغير يشكو لأنه يريد تقليد الكبر وأسبابه لا تساعد.

نحن لا نحاري أولئك الذين يدعون أن لبنان كان خراباً لولا الهجرة لأمر أقنوها أن البلاد السورية واسعة وأهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون أن يتولوا الأقاليم القليلة السكان المحتاجة إلى العناية ويستعمروها فإن فتشوا ذات اليبين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعبك والبقاع ومرجعون وصيداء تتاحم جبلهم وتحصرهم فيه فإن لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً ما يكفي لإغناء مئات الألوف من الناس فنو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لأصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من منافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم أيام السنة في جبلهم.

وقد كتب قائم مقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول أن خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فنو اشتراها بعض أرباب الأموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة إلا وهذا القضاء وحده من أعمار البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الأقضية والألوية والولايات العثمانية من الخيرات.

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فإن ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء. وأنا لنؤثر أن يوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قل البلاد الداخلية من سورية والعراق والأناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغامم كثيرة ولو صبروا على جنبها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد ومالك لا يكاد يبلى.

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرقى لو سعوا تحسينه كعمل الأقمشة والنجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فإن لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماساً للصحة والراحة فنو عني اللبناني أكثر مما يعنون براحة من يزلون عنهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان المبلغ لا يقل عن مئة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قسم لبنان لا يعتمد أن يجلب إليه أناساً من المصطافين من أهل

أوربا نفسها خصوصاً إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر والمبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف. وبعد فإننا لا نفتأ نكر القول بأن من الأنفع لأبن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته إلى الداخلية ليعتاش ويرتاش وأنه إذا استفاد المهاجرون منا إلى أميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض أصول التمدن في المنس والملبس والمأكل والسكن فإن الأنفع له اليوم أن يسعر بلاده وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم. وسوف يعلنون أن هذه النصيحة صادرة عن إخلاص لا يراد منها إلا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فإن يقاسيه اللبناني من ألم الغربية والمهانة في الأحياء واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسب بلاده والعيش بين أهله وجيرته. وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن ما حمده اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية.

نخبة العربية الأخيرة

ساحتي الأخوان (١)

سألتوني سعدت بكم أوطانكم أن أحدثكم بطرف من تاريخ نخبة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم إلا من استفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفضة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وأن تعبروا أكناف معالمة ومجاهله بما ثقفتوه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتوه من علم صحيح وآداب رافعة. فإني لي وأنا نازل بينكم متعلماً لا معلماً أن أفوه في حضرتكم

بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصانع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلا حال من يحمل الثمر إلى هجر أو المسك إلى أرض الترك استغفر الله بل أن حال من ينقي محاضرة على جمعية الإخاء المصرية في باريز أعجب وأغرب.

إخواني: تعلمون قوت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وأن أتعب أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة. ثلاثة قرون بل أكثر مضت في مرض مستحکم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيدكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد أن لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلموها لينهضوا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضطرلال ما دام في الأرض مسلم يوحد الله.

لابد لكل حركة من سبب. وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع المنوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العنيفة صورية ينظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولاً لا غناة فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الأمن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربي من لم يتررب.

وكان قدرة المولى تعلقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم. وربما يعجب بعضهم الآن إذا قلنا له أن مبدأ فحوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحت عزمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيين فكان من أعماله الحيلة ما خلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق. والشرق أبو المعجزات والكرامات.

ليس من يجهل أن محمد علي كان أمياً أو يقرب من درجة الأمية. مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان ارناؤدياً ولم يخط سطوراً واحداً لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط. ومع هذا فقد عني بما لم يكن به أحد من منوك المتأخرين وشرع منذ استتب له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قرؤوا الدروس الوسطى فيبحث بهم على نفقة الحكومة إلى أوروبا ليخصوا في العلوم التي أولعوا بها حتى إذا عاد أحدهم وأتم تحصيله بحسبه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالفرنسية في الفن الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف. فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان^١ فيبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الأميرية ويغدق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويشرع في ترقية في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجنديّة أو البحرية وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليخرج به أبناء مصر. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الأنعام على

المرحومين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خيفة في الإسلام لا يستكثر منه وعصره شباب هذه الأمة بقدر ما يستكثر ما تم على يد محمد علي الأمي الألباني وعصره عصر شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب أحد حسنة مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشاهدها الآن في تجدها: لقد ظلت قضيتنا العلمية سائرة أحسن سر إلى سنة ١٨٨٢ فنا بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لإحلال اللغة الإنكليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسبب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء انكسرتا وقطعت الإرساليات العذبة إلى أوروبا حتى لم يكذب يبق اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنوب وارثين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة أكادساً من مستودعها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأهمهم كما عق أخوة يوسف ابن أبيهم عل حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التأليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته.

قال غالب بك كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضة الأولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الأستاذ درسه بالفرنسية والمترجم معه ينقله إلى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ أصبح فيهم الأكفاء الآن وأن مهنة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العنية قد انتهت أو كادت.

نعم في ذاك العهد تم للعرية ما تريد من تعريب المصنفات العنية والأدبية على اختلاف أنواعها فأضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العنوم منها قروناً وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والهيهاوي والنحراوي وحماة ومجت والفنكي وندى والنراوي والبقلي ألفاظاً من اللفظ كانت في حكم المدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر وأضافوا إل تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سنك عليها أجدادنا العربون غالباً حتى أن الأتراك والفرس لما شرعوا يعنون العنوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كثيراً حاضراً يتفهم به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعنوم والاجتماع والفنسة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدجموها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوروبا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن همة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البند العربية كافة وأصبحت مصر بيض أياديهم من هذه البلاد بمشابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الإفرنجية زهاء ألفي مجلد. والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قلته أو عرب في قلم الترجمة برئاسة وما بثه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجنته روضة المدارس. وكنها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جليل. خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي مسعود ومجنته الطب لكنوت بك.

ورب معترض يقول أي علاقة لعلم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المثورة والمنظومة ليس إلا. والجواب أنه لا أدب لمن خنت لغته من أمثال هذه المعارف. فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا خنت لغته من أمثال هذه المعارف. فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا اللغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل إن لغة مهنا حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية إن لم تكن لغة علم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا متطرق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية وهي أنا إذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية. وشارلمان كنا لا يعزب عن عنكم كان من أعظم ملوك دهره وله صفة بملوك المسلمين وهو الذي

أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولا من قبله سنة ١٨٠١م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي المتجئ إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة. كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلم الكتابة البيطة على كبر مثل محمد علي إلا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستيرين والمحلمين الذين يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشهور أستاذة وأمين سره وبأذر الجرائم الأولى من المعارف في هذه الأرض الفرنسية وبمساعدته أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد إذ ذاك وتور واورليان وليون واستنخت الكتب الوفرة ليتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لهضة شارلمان ما حدث لهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ربحها جملة واحدة لأن من خفقوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا على قدم ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولأن الأعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالأفراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية. أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نح عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكئة في مهنتها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بأن كل إصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الإستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الأمة والحكومة. والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها إلى اليوم من

يفضل الجهل على العنم. وهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الأمة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تنحدر وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره في الأماديخ والأهاجي وإن ارتقى الشاعر انقلب لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخنخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال. وما أظنكم أعز الله بكم دولة الأدب إلا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وخدمتم الله على أن تخلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال محمد عبده وأحمد فارس وإبراهيم الموينحي وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الألوسي وجمال الدين القاسمي وحفي ناصف ويعقوب صروف وإبراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم أمين وأحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويز وصالح حمدي حماد وليب البتوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف وأحمد تيمور وزكي مغامر وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفروح انطون وجرجي بني وإبراهيم النجار وأديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل وأحمد فؤاد وسعيد أبو جهرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيوم وخير الدين التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الإنكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباني ومحمد مسعود وحافظ عوض وحسن

حسني الطويراني وأحمد سمير وعبد الغني العربي ورزق الله حسون ويوسف البستاني
 وأنطوان جميل وعادل أرسلان ونسيب أرسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد
 ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار وميثيل بيطار وحنيل زينية ومحمد مصطفى وأحمد
 زكي ومصطفى لطفي المنفوطي وأمين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعنوف وديمتري
 قندلفت ويوسف الخازن وروحي الخالدي ومحي الدين الحياط ومحمد الموينحي وحنيل
 سعادة وداود بركات وبشارة زلزل وبولس زوين وعبد القادر المغربي وبدر الدين
 النعماني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد
 وعبد الكريم سلمان وأحمد الصابوني وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماءهم من
 شيوخنا وكهولنا وشبابنا. وقام من الشعراء محمود سامي وعبد الحسن الكاظمي وإسماعيل
 صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي وشكيب أرسلان
 وفارس الخوري وحنيل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس
 كرامة وناصر اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وأمين الحداد وولي الدين
 يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم
 ومن الخطباء جمال الدين الأفغاني وعبد الله نديم وإبراهيم الهلباوي وسعد زغنون وأحمد
 الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن سبندر وأنيس سنوم واسكندر
 العازار وفارس نمر ومحمد أبو شادي وأمين ربحاني ومحمد لطفي جمعة وأحمد لطفي السيد
 وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفي وأحمد لطفي وإبراهيم النقاشي وأحمد محمود وعبد العزيز
 الثعالبي وغيرهم ممن هم عدة العربية في هضمتها الأخيرة عملوا خيرها في مصر والشام

والعراق وتونس أعمالاً وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله.

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الإمارة العلوية عزّ على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الأفراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي وكانت بيروت مدينة وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسني الفرنسي والأمير كان وأنشؤا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تشييط لغة قريش لندكتورين كرنينوس فاندليك ويوحنا ورتيات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الأمريكية الأنجليزية في بيروت تعلمنا العربية والأول أميركي والثاني أرمني ودرسا بها مع أقرانها العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الإنكليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقلالاً من وظيفتهما لأنهما أبت مروءتهما إلا أن يحضيا النصح للبلاد ولتفتحها. والدكتور كرنينوس فاندليك الأمير كافي في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعه الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فاندليك أعظم لأنه أميركي والمنشأ غار على لغة العرب أكثر من أنها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لها حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعاهما ثقالين كما رفعت باريز هوغو وروسوا وكما رفعت مصر لحمد علي وإبراهيم. والعناء لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذلك الدور أيضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحمد وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم. فهؤلاء كنهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والخطباء. ولم تحرم الأستانة - والعواصم مرزوقة منذ خلعها الله من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبمحه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح عليّ صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عنه.

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنجلترا وتعلم خلال ذلك الإنكليزية والإفرنسية ثم دان بالإسلام وألف بعض الكتب ومنها اللغيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتب في أوربا كتاب الساق على الساق في ما هو الفاريانق أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ. وضعه ترجمة حياته وشؤوناً وشجوناً على أسنوب يجمع بين الجدة والفكاهة تقدر أن تعدّه من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالأمور منيك (الجد في الهزل) أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فنوبر أو الناتوراليست (الطبعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقتة في التصوير ومثابته في التحرير والتجوير فكان النقة التي كان من جهة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروزآبادي الذي ألف كتاباً مهماً في نقده سماه

الجاموس عنى القاموس - كانت نصب عينيه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتقن ما شاء بيانه وتبيانده. ونلفظ الفاريق مقتطع من أول اسمه فارس وآخر اسم أسرته الشدياق. وقد حمل في كتابه عنى رؤساء الدين حجة منكراً لأن بعضهم قتلوا أخاه ظليماً وتعصباً جعونه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرهستانى (١).

هبط أحمد فارس مدينة الأستانة بعد أن أخبر حال أوروبا بخبرة زائدة وأنشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الأفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح ومن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبع له مطبعة الجوائب معظم تأليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بأبي الفداء صاحب هذه في جمعه حكم الناس إلى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسنة.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها عنى نسخها وقل أن نشأت جريدة في صحها ودياجتها العربية النهم إلا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصباح الشوق لإبراهيم بك الموينحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فيها مساعدون في الأقطار العربية كان يهاديهم ويهادي عشاء عصره حتى كثر أحبابه من العناء في شمالي إفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ما ينشر فينقه ويروقه وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية. فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من

آثاره ومن أراد أن يطلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى كثر الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وإن أحب الإطلاع على الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوروبا ومصر والأستانة.

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حدود نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر النبال ورحنة له إلى أوروبا جدة محضة وكتاب نحو اللغة الإنكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالي والتوحيد والطهراني والبدیع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن أسلوب راق في طول البلاد عرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسنوبها. وما برحت مطبوعات الجوائب إلى اليوم يتنافس المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الأحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون.

ابتلى أحمد فارس بأناس حسدوه وأي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره ونثره وينتقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات النغوية والأدبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزهم لم تزد فارسنا إلا جرأة على الجري في مضماره وقبولاً بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب اللغة العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسيين فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلاً فيما يكتبونه وأخذت تحف أغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحنا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم أن أسنوب الكتابة العربية لا ينقص عن

اللغات الإفرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المشين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم.

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة نضرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس لنهجرة وخصنا من ذلك السجع المتكنف الذي أتاننا به العباد الكاتب الأصفهاني من فارس - وفارس مورد بدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب... ونقله إلى العربية فأجاد في أكثره إلا أن من جاؤا بعده قد أفسدوا علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصايي وتاريخ البيني لنعني ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلاند العقيان وذينة مطمح الأنفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لأبن عربشاه وخزانة الأدب لأبن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كتب لي الإطلاع على الآداب الفرنسية والتركية وأنشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وأبن العمد وأبن خلدون وأبن الخطيب وغيرهم من جهابذة المشين غلوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل هج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والإحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعدادده وهو في الحقيقة ونفس الأمر مادة أدب كنا هو مادة عليم لا تبني على الدهر جلدنا ولا تخنق

دياجتها كما كنت أعجب من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النيه وابن معروق
والصفي الحلي وابن منجك وابن منيك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من
أهل هذا الشأن أمثال أبي الطيب وأبي عباد وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس
وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعناء المشاركة
من الغربيين أمثال دوزي ودساي ووستفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوروبا وبعض ما
نشره اليسوعيون في مطبعهم المثقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت
في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا
المختصر لأبن سيدة وأحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الأميرية
ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس. كل هذه الأعمال أعانت
العربية على تحسين آدابها وترقيتها. ولا تنسى غيرة أولئك الذين نجوا في منظومهم
ومثورهم على مناحي الأوروبيين من حيث قلة الكلفة ومجاعة الطبع ومحاكاة الطبيعة
ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من
السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاهم أفكار الغربيين في سياستهم وعلومهم
واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الأدبي على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمانا بفضيلهم
عليها من الغناء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أقدم لكم مثلاً من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيكم على مراجعة مجموعة من
جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والخروسة في مصر
وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا إليها

اليوم وإن كانت إلى الآن عشيقته الركائكة بعض الشيء. قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثاتها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفطنه. عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن الحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب الخماطة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء. استمعوا لخطباء اليوم من درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من المسجعات في دواوين الخطب القديمة. تدبروا لغة التمثيل اليوم وإن كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً وأسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسناجة. اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الحالية من العقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العراقية وبعدها مثلاً تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس مما يعد من فوضى اللغة ما نراه من أحكام منكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثاً تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وقوتها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق أما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفخر العربية في هذا العصر استحكت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضاً مثلاً صغيراً أذكره لكم على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العدد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلف في التعبير مما لا تنوده في عسلطات الحشين والمهشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصيح العربية وشواردها وتفنن فيه من أساليب التعليم. نعم إن مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على انتشار الآداب وأدخلت الغيرة على التعلم في نفوس أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الحمة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة ولأن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيّاً في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم. أما طرابلس الغرب وبرقة الصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تنقف ملكة العربية وأعني به شقيط بند الشيخ محمد محمود

الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا. وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقي والامتظار وقد شوهدت في شريط بعض البنات الشنقيطات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في إحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حنب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ومجد وحضرموت ومقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق إلا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية ونعني بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الأفكار الذي دام في البلاد العثمانية إلى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي إذا قلنا أن ثلاثة أرباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس. ومن الأسف أننا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكروثونية منه بالعربية الحجازية فسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع وما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجري سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد والرشيق. ومع هذا فإن الآمال قويت بأن لا ينصف هذا القرن الرابع عشر لنهجرة إلا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والحاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها

أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا قهيات لهم الأسباب لأتى على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجي ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الأقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد للدرس والاستنارة.

هذا ما أحضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوك تمنعني وأنتم تعلنون أي على أوفاز استودعكم الله والسلام عليكم.

طريقة التعليم

كان من أول الإصلاح في أوروبا أواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة لما شرعت الأمم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والأدبية أن أتت على طريقة التعليم تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في أوائل القرن الماضي تنظيم مدارسها على النحو الذي نراها عليه اليوم وأصبحت يدخلها الطالب فيتعلم في بضع سنين لغو أو لغتين أو ثلاثاً معها إلى ما يتحتم عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس النظامية الأولية منبأً بفروع كثيرة بل بأمهات العلوم وأصولها المقررة لإعداد العقول للتخكير والأنامل للكتابة والألسن للنطق والأجسام للحركة وهذه الدروس التي يسمونها دروس الموضوعات (الأنكلوبيدية) يمر فيها الطالب على كثير من المطالب تغنيه إذا أراد الاختصار عليها والانصراف إلى أكثر الأعمال التجارية والصناعية والزراعية والعينية. وإذا سمحت به همته إلى الإخصاء في

عنم واحد من العنوم التي ذاقها في الجبلنة يتحضر لها ويدخل مدارسها الخاصة كمدارس الزراعة والتجارة والمعادن والميكانيكات والأدب والطب والهندسة والقضاء والجنديّة واللغات والفلسفة واللاهوت والاجتماع وعن ذلك من أصناف العنوم التي جعل لكل فرع منها مدرسة خاصة أضعف خاص يدرس فيها من تصح عزيمته عنى الامتياز في فروعها ليكون فيها مرجعاً ويزر عنى أقرانه فينفع وينتفع.

ولولا إصلاح طريقة التعليم والإلقاء لم يتيسر لنشاب أن يدرس في سنين قليلة مثل هذه الدروس الكنية ولكن أصول الكتب التي ألفت بحسب سني الطنب وسن الطالب وطريقة الإلقاء الشفهي والإملاء الكتابي هي التي تفتح ذهن الطالب وتحب إليه الدرس والبحث منذ الصغر فلا يتناول من العنم إلا بقدر معلوم ولكنه يتناول الباب وي طرح القشور ويقرأ المختصرات إبان دراسته كليات العلوم فإذا شب يتناول المطولات فتكون منه عنى طرف الضام.

فبئس هذا التنظيم في التعليم ثم الإخصاء في فرع أو فرع نبغ في الغرب رجال في عنوم البشر لأشبه بينهم وبين رجالنا في سعة المدارك وبعد المهتم والعلم الواسع وبتربية بنيه عنى هذا الأسلوب نبغ في القرون الأخيرة فرادليس في رجالنا من يضاهيهم أو ينبغ عنه ربع عنومهم أمثال ديكارت وكونت وكانت وياكون سبينوزا وبيترلا وأميرسون ونيوتن وهاكسلي وسنسر وكيتي وشينر وروسو وفولتير ومئات يتعذر الآن إحصائهم.

هذه المدارس وطرق تدريسها هي التي حرم منها الشرق إلا قليلاً ولا يرجى تأسيها عنى ما يجب في البلاد المصرية والعثمانية إلا بعد أن تكون المائة والخمسون طالباً الذين تبعث بهم نظارات الحكومة العثمانية إلى كليات أوروبا قد أنجزوا الفروع التي يتحضون

لها ويعود أولئك الذين أرسلتهم الجامعة المصرية للأخصاء في فروع متنوعة من العلم يدرسون في الجامعة بالعربية فيخرج بهم أرباب الرغبات في العلم كما يتخرج الآن في السلطنة العثمانية أناس كثيرون بالرجال الذين درسوا الفنون العسكرية والطبية في ألمانيا أو يتخرج المصريون بالأساتذة القلائل الذين تعلموا في كليات انكلترا وفرنسا وألمانيا على نفقة نظارة المعارف المصرية.

متى كثر عدد المتعلمين على الطريقة الحديثة وأصبح الأستاذ لا يجلس في حلقة تدريسه وعلى منبر إلقائه إلا إذا كان أفنى شطراً من حياته بالقعود على دكات تلك المدارس الراقية وأسهر الجفن في الليالي وراء المناضد وتخرج بأعظم أساتذتها الأعلام هنالك قل للعثمانيين والمصريين أنكم بلغت درجات الأمم الحية فجدّيون وأنتم ما أنتم أن يهاجمكم العدو ويحترمكم الصديق. وأي سلاح أمضى من العلم الصحيح والآداب الرفاعة وأي عاقل يبجل غير الحري بالتجلة والإكرام ممن امتاز بصفات الرجولية الحقيقية.

لا جرم أن إصلاح التعليم على الأسلوب الجديد وتدريس علوم الدنيا به ينفع إذ ذاك في إحياء العنوم الدينية أيضاً لأن الارتقاء سننة لا يتيسر أن يكون بعضها عاطلاً وبعضها حالياً بل هو كالبناء لا يكون صحيحاً إذا تداعى منه جانب.

متى حسنت طريقة التعليم لا يقضي طالب العلم الديني بضع سنين مثلاً في تعلم بعض العنوم الآلية ليحسن مطالعة عبارة معربة فيفرض كما هو الحال في الروم إيني والأناضول والشام سنين كثيرة في بحر البناء والمقصود العزي والمراح والعوامل والإظهار والكافية والشالية والسرقندية والمختصر والهنوسية والأيساغوجي وغيرها من كتب النحو والصرف والبيان والمنطق ثم لا يتلو شيئاً من العنوم التي يقصد تعلمها كالغسر والحديث

والفقه والكلام والحكمة. وذلك كما يفوح طالب العلم في الأزهر في قراءة الأجرمية والكفراوي والأزهري وابن عقيل والخضري والصبان وغيره من كتب النحو المطولة والمختصرة ينتقل من واحد إلى آخر حتى يفرغ صبره ولو قرأ أحد هذه الكتب المطولة قليلاً كابن عقيل وشرحه مثلاً لأغنته عن هذا التطويل الذي يضيع به وقته ويتبدد ذهنه وتفوته الغاية المقصودة من الطلب واللغة آلة لا غاية. ولكن عقم طريقة التعليم قضى أن لا يتعلم طلبة الجوامع والمدارس سواء كان في الديار المصرية والبلاد العثمانية إلا هذه القوانين والقواعد ويحرموا من تطبيق النظر على العمل.

وليت شعري أليس من فساد طريقة تعليم المشايخ أن لا يعنم الطالب منهم كتاباً أو شذرة من عنم الأدب واللغة ليفهم أثناء دراسته النحو والصرف والبيان معاني الكلام الفصيح ويطبق النحو والصرف والبيان والمنطق على العمل ثم يتأتى له تأليف جملة صحيحة عربية وكيف يتأتى للسراء إتقان لغة دون أن يطنع على كلام أهلها وكيف يؤلف الكلام من لا يفهمه وهل اللغة الإسماع من أصحابها والجري على مناحي بنعائها وما نظن الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن الطفيل وابن زهر وأبا حيان وابن جرير الطبري والماوردي ومئات غيرهم في الإسلام كانوا يعرفون فروع النحو ودقائقه مثل ابن الحاجب وابن عقيل والبركوي والصبان وإعراهم من أئنته ومع هذا انضعت الأمة بكتب أولئك الفلاسفة والعنساء انتفاعاً يبقى أثره على الدهر ولم تعهد لهم غنطة شائنة ولا أسلوب ركين.

لا يتيسر إتقان لغة من لغات العالم كلها إلا بالسماع من أفواه أهلها وسنوك الطريقة العلمية في اقتباسها فلم أتقن الطالب جميع قواعد النحو والصرف والبيان والمنطق كما هو

الحال الآن في هذا الصنف من المعلمين ولم ينظر في تحليل الكلام العربي واستظهار القدر اللازم من منثوره ومنظومه ولم يتدبر معاني الكتاب ولا أخذ بقسط من الحديث وغيره ما استطاع الطالب أن يفهم روح اللغة العربية على أصولها ومن لم يفهم اللغة كان حرياً بأن لا يفهم أسرار الشريعة على ما يجب.

إن المدارس الغير نظامية كالأزهر والفتاح صدت الناس عن الطلب لما اعترضهم دونه من العقبات بالطريقة العقيمة المتبعة معهم وأي طريقة أفسد من أن يظل الشيخ يشرح للطالب المبتدئ في أول يوم يشرع فيه بتعلم النحو كيفية إعراب البسطة ووجوه قراءتها على حين يكون الطالب غفلاً لا يعرف الجار من الجرور ولا المرفوع من المنصوب ولا الصفة من الموصوف وهكذا يبقى الشيخ يضيق وقته ووقت الطالب على غير جدوى وقد رأيت من المشايخ من قرأوا العوامل في سنة والعوامل مثل فهرس لأبواب النحو لا يبلغ ثلاث ورقات إلا أن المدرس أوسعها شرحاً وتحشية وهميشاً حتى صارت كتاب نحو مطول هيهات أن يستوعبه عقل طالب.

ولذا كان من خير ما تم من الإصلاح في الأزهر على عهده الأخير الاستغناء ما أمكن عن الشروح والخواشي. ولعل المشيخة الإسلامية تنظر لطريقة تعميم طلبة الجوامع بما يقوم أودها فتقضي على طلبة العلوم الدينية أن يمتحنوا امتحاناً عملياً لا نظرياً مزوجاً بشيء من العلوم العصرية كما هو حال مدرستي دار العلوم ولقضاء الشرعي. وتسير على هذا المنهج إدارة الأزهر الشريف فيعود إليه سالف مجده ويخرج في السنين القليلة طلاباً درسوا علوماً كثيرة تنفعهم في جهاد الحياة.

الأرض وما تخرجه

تبلغ مساحة الحقول المزروعة بأيدي البشر ٥٣٧ مليون هكتولتر أي واحد من خمسة وعشرين جزءاً من أراضي القارات الخمس وثلاث أراضٍ أوربا مزروع وواحد في كل ١٢١ هكتاراً من كندا وبينغ ما في الأرض من الحيوانات ذوات القرون ٢٨٠ مليون رأس و٤١٣ مليون خروف و١٢٧ مليون خنزير و٧٠ مليون حصان. ومثلكة هولاندة أخصب بلاد العالم يعطي كل هكتار من أرضها ١٢٣٥ لتراً من الحنطة في حين يعطي الهكتار في فرنسا ٧٢٠ وهي معدودة أرقى بلاد أوربا بزراعتها ويخرج من الولايات المتحدة ٢٣٤ مليون دجاجة.

الدواب والأثقال

أفضل ما اهتدى إليه الإنسان استعمال الخيل كانت العول عنيتها في التقل قبل الدراجات والسيارات والمناطيد. ومن أقطار العالم ما لا تسعمل فيه الخيول لأنها غالية الثمن أو لا تحتل مناخ الإقليم الموجودة فيه أو لأن الطرق غير معبدة أو لأن الأحمال التي يراد نقلها عنها غير متناسبة مع قواها فاستعاض سكانها بغيرها من الحيوانات ففي الهند وبعض بلاد الشرق الأقصى يعدنون إلى استعمال الفينة لا لقنع الأشجار بل لحملها إلى الأماكن البعيدة وأن محالب الفينة في برمانيا وسيام على صغرهما وقوتها تكفي لقنع أضخم الأشجار من جذوعها ولما كانت محالب الفينة في سيلان وسومطرة ضعيفة أكتفوا منها بأن استخدموها بدل البنايين فعهدوا إليها بنقل الأحجار الضخمة ووضع بعضها فوق بعض كما توضع سائر مواد البناء.

وفي الترنسفال تجر ثنائي أو عشر أو ثنتا عشرة بقرة مركبة بسرعة مهتة وفي جزائر الأرخيل يربطون البقر توصلهم وأثقالهم إلى الحقول حتى إذا بلغوها استعملوها فيما تستعمل فيه الخيول. وفي برمانيا جنس من الجاموس معد للسباق وهو مطلوب بقدر ما تطلب خيول السباق في أميركا. ويسعملون في جهات القطب الشمالي الوعل والكلب بدل الخيول والوعل هو خيل بلاد لابون يقطع ١٥٠ كيلومتراً في اليوم وهو مربوط إلى مركبة متسعة والكلب فيما وراء ذلك الإقليم أي أصقاع القطب بمثابة الدواب التي تجر الأثقال وهو مستعمل في شركة فمر المدسون بأميركا كما يستعمل القرد المعروف بالأسكيمو. والكلاب هنا قد تقطع ١٥٠٠ كيلومتر بدون أن تستريح طويلاً ومن الغريب أنهم لا يطعمونها بل هي التي تفتان لنفسها إذ يصعب حمل مؤنتها في جهنة ما يراد حملها في المركبات التي تجرها ولذلك كثيراً ما يحدث أن تفترس الكلاب بعضها بعضاً لقنعة الغذاء فلا تصل المركبة إلى المكان المقصود إلا بزوجين أو بأربعة من الكلاب في الأكثر. والجمل كما هو المعنوم في افريقية وآسيا هو الذي يحمل الأثقال.

وفي كثير من البلاد يعمل الإنسان بدل الحيوان لنقل الأثقال ولا تزال الحارات والدراجات التي تسير من نفسها في بلاد أنام وقد انتقلت إليها من اليابان وهي عندهم دحية أدخلها منذ أربعين سنة أحد المرسلين الأميركيين كان لينتفع بجرحها محاويع الأهنيين ولكنها أشاعت عندهم شوعاً هائلاً حتى أنك تجد في طوكيو وحدها عشرة آلاف عربية من هذا النوع تقطع عشرة كيلومترات في الساعة ولا تزال هذه المركبات التي يجرها البشر شائعة في أنام وسيلان والهند وجنوبي افريقية على الرغم من انتشار السكك الحديدية والتراموايات والدراجات والسيارات. والمركبات المستعملة في المكين هي

من نوع ما كان يستعمل في اغارات لنقل المنوك في أوربا وثن البغل في الحبشة ضعفاً أو ثلاثة أضعاف ثمن الحصان ولذلك يؤثرون استعماله للإكرام ومن يريدون إكرامه ليحظى بحضور نجاشي الحبشان يركبونه على البغل ويركبون الخدم على الخيول. واشتهرت حمير القاهرة حتى احرزت قصب السبق في بعض المعارض. وفي بعض المدن الكبرى من فرنسا يستعملون مركبات يقطرونها إلى العز يستخدمونها لتربية الأولاد في الحدائق العمومية كما يقطر النعام في افريقية الجنوبية وكينغورنيا إلى المركبات ليجرهما. والبقر شائع في جر المركبات في كثير من الأصقاع الأوروبية والآسيوية. وفي هولاندة والبلجيك وبعض الأقطار الشمالية من فرنسا يقطرون الكلاب بالمركبات وتجرب عربات بثعي الحليب.

مدة النوم

كان الطب القديم يقضي بأن ينام الأطفال والشبان والشيوخ ست ساعات في الأربع والعشرين ساعة ويعد من ينام كثيراً من الكسالى ولكن علم الصحة الحديث قضى بأن تكون كمية النوم متناسبة مع ما يصرفه الإنسان من قواه فالشيخ الذي يتوجب عليه سنه أن لا يصرف كثيراً من قواه ينبغي له أن لا ينام كثيراً أيضاً ويقول المثل الإفرنجي إن أرق الشباب ونوم الشيوخ دليل الموت لا الحياة وكثيراً ما يصدق هذا القول. فسبع ساعات تكفي لمن يتعاطى الأعمال الصعبة منها ساعة في النهار وينتاب داء المفاصل والحميات المتقطعة العامل الذي ينام على الأرض معرضاً للهواء ولو كان في الشمس كما أن علة الصرع قد تعترى الشيوخ الذين ينامون بالقرب من النار بعد الطعام.

عدد البقر

في انكلترا ١١، ٤٥٥، ٠٠٠ رأس بقر وفي ألمانيا ١٩، ٠٠١، ٠٠ وفي فرنسا ١٣، ٥٥١، ٠٠٠ وفي روسيا ٣٧، ١٣، ٠٠٠ وفي النمسا واختر ١٤، ٢٣٧، ٠٠٠ وفي إيطاليا ٥، ٠٠٠، ٠٠٠ وفي اسبانيا ٢، ٤٥٢، ٠٠٠ أما بلادنا فليس فيها إحصاء مدقق للبشر فضلاً عن البقر.

طحين الشوندر

هو محصول جديد يستخرج من الشوندر الذي أصبح منذ مدة يستخرج منه للصناعة سكر والكحول وكان هذا الطحين يستعمل في ألمانيا ولكن لعنف الماشية فوصل أحد الزراع البنجيكين إلى الانتفاع به في المعجنات. وطحين الشوندر يحتوي على ٦٥ في المئة من السكر.

الكنيات الفرنسية

كان عدد أساتذة العنم في الخمس عشرة كنية في فرنسا سنة ١٩٠٩-٣٦٦ و ١٠٢ ناظر ومحاضر و ١٤٨ ناظراً عاماً على الأعمال العنية و ٣٣٦ معيداً للدرس وطالب من الحكومة لرواتب الأساتذة ومن يتبعهم سنة ١٩١٠ مبلغ ١١، ٦٧٩، ٥٥٣ فرنكاً و ٢، ٢٢٩، ٨٢٧ فرنكاً لايتباع الأدوات وقد زادت ميزانية تلك الكنيات زهاء ربع مليون فرنك.

عطايا كنيات أميركا

كانت عطايا الحسين لكنيات أميركا في السنة الماضية كثيرة على العادة وأهها لكنية يال ٤٧٥ ألف دولار ليؤسس فيها معمل طبيعي و ٧٣ ألف ريال لتصرفها على تعميم بعض نوايع المعوزين و ٢٣٦ ألفاً لجامعة دورهام و ٥٠ ألفاً لكنية ماك جيل في مونتريال و ١٠٠

ألف لكنية برنستون و ٥٠٠ لكنية أوهمير و ٢٣٠ ألفاً لكنية هارفرد وأعطت عقينة ريد مبلغ مليوني دولار فقط لتأسيس مدرسة جامعة للفنون والعلم في بورتلاند من أقاليم أورغون.

عظمة بريطانيا

نشرت المجلة الوردية إحصاء في بلاد الإنكيز ومستعمراتهم وتجارتهم في العام الماضي جاء فيها أن مساحة بريطانيا العظمى ١٢١، ٣٩٠ ميلاً مربعاً وسكانها ٤٤، ٥٣٨، ٧١٨ ومساحة الهند الإنكيزية ١، ٧٦٦، ٥١٧ ميلاً يسكنها ٢٩٤، ٣١٧، ٠٨٢ ومساحة مستعمراتها الأخرى في آسيا ١٤١١٥٠ ميلاً يسكنها ٦، ٢١٨، ٠٠٦ ومساحة مستعمرات المحيط الكبير ٣، ١٩٠، ٣٦٠ ميلاً سكانها ٥، ٨٤٨، ٤١٣ ومساحة مستعمرات افريقية ٢، ٠٩٩، ٤٨٣ ميلاً سكانها ٣٤، ٦٠٥، ٣٠٥ ومساحة كندا ٣، ٧٤٥، ٥٧٤ ميلاً سكانها ٦، ١٥٣، ٧٨٩ ومساحة المستعمرات الأميركية الأخرى ٢٧٩، ١٢٣ ميلاً فيها ٢، ٣٣٦، ٩٥١ ومساحة أملاكه في أوروبا ١١٧ سكانها ٢٢٨، ٦١٨ فيكون مجموع مساحة ما يخفق عليه العلم البريطاني في القارات الخمسة ١١، ٣٤٣، ٧٠٦ أميال مربعة و ٣٩٤، ٢٤٦، ٨٨٢ ساكناً أو نحو خمس العالم وواردات بلادها ١، ٠٥٣، ٢٦٥، ٩٩٥ ليرة إنكيزية وصادراتها ٩٦٨، ٣٤٤، ٥٦٢ ليرة أي بزيادة ثلاثين مليون ليرة في قسم الواردات وعشرة ملايين في قسم الصادرات بالنسبة للسنة السابقة وزادت خطوطها الحديدية حتى أصبحت في السنة الماضية ٢٣، ١٠٨ أميال في بريطانيا و ٢٩، ٩٣٦ في الهند و ٥٣، ١٩٩ في سائر المستعمرات.

الطب الصيني

قال أحد أطباء الغرب في يونان من بلاد الصين أن ما يقال في شهرة طب الصين مبالغ فيه على أن الصيني لا يعادي الطب الأوربي ومعنوم أن أحد أمباطرة الصين درس سنة ٢٧٣٧ ق. م زهاء مئة نبات شافٍ ونظمها تنظيماً حسناً وأن علم تركيب الأدوية الصينية يربو على خمسمائة نوع من النباتات الطبية والتراكيب المختلفة مثل قرن الوعل وذرور الأظافر وشوارب النور وإذ كانت تستعمل بالإفراط أحياناً فقد تؤدي بحياة المريض وعند الصينيين من النباتات ما يستعملونه من الخارج مثل نبات يقي من الإسهال يجمعونه على البطن في لزقة وعندهم أدوية تقي من السكر ومن الخوف أو تجنب الخوف وأدوية لمداواة العشق وأدوية لزعجه. وذكر الطبيب المشار إليه حالة أهل الصين مع حفظ الصحة فقال أن البيت الصيني قدّر مظلم كئيب لا نوافذ له في الأغلب وفراش الصيني وهو من الخشب مغشى بالحصر وأغطية وسخة تحته في الشتاء موقدة ترمى بروائح أو كسيد الفحم لترسل الحرارة في المكان. وليس عند الصينيين عناية بتنظيف الجسم فيكاد الصيني لا يستحم مدة عمره ولا يترع ثيابه عن بدنه إلا إذا نزعته وليس في البيوت محال لللاطنتان ومراحض والمستنقعات مملوءة بالأقذار ولذلك كانت الحمى التيفوئيدية والزحير من الأمراض الوافدة في الصين وكثرت وفيات الأطفال كثرة هائلة ولكن التناسل كثير جداً.

الأضواء في فرنسا

تكون الأضواء في المدن والقصات الفرنسية بالكهرباء والغاز والاستيلين فيها ٣٧٦٩ مدينة ومديرية لها معمل للغاز أو محطة للكهرباء والاستيلين وفي فرنسا ٣٧٠٠ حاضرة مقاطعة و ٧٧٢٠ مديرية يربو سكان كل واحدة منها على ألف نسمة لم يزل بعضها محروماً من الكهرباء ولا تكثر الكهرباء إلا بالقرب من شلالات المياه وتمتد على مسافة طويلة فتضيء الأرجاء.

اكتشاف العالم الجديد

عثر الباحثون في مينوستا في الشمال الرقي من الولايات المتحدة على أثر تاريخي يستدل منه على أن أميركا دخلها أناس من العالم القديم قبل أن يصل إليها كريستوف كولومبس بمئة وثلاثين سنة. وقد زعموا كثيراً أن جماعة من السكاندوايين نزلوا الشاطئ الشرقي من غروانلانده ولابرادور نحو سنة ألف لخمسمائة ولكن ذلك من روايات بعض القصصين الذين جاؤا قبل القرن الخامس عشر ويظهر أن الأثر الذي عثر عليه الآن أقرب إلى الصحة وقد عثر عليه جماعة من العملة بينما كانوا يعالجون أخراج جذع من الأرض وهو عبارة عن حجر بين جذعين وقد عرف من البحث في الجذعين أنهما أصل لشجرتين قديمتين غرستا بعد وضع ذاك الحجر المكتوب عليه من وجهيه بحروف رونية كتبت في القرن الرابع عشر والحروف الرونية هي حروف السكاندوايين في القرون الوسطى لا يعلم حلها إلا أفراد قليل وما كان منها من القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر يمكن تقليده ولذلك تبين لهارلاند العالم الأثري أن هذا الحجر صحيح والكتابة به واضحة ومعناها أن ثمانية من الغوطيين واثني وعشرين من النوربين بنوا كانوا يطوفون البحار سافروا من فنلندا في ايكوسيا الجديدة ونزلوا على مقربة من لينتين بالقرب من هذه

الحجر وذهبوا إلى الصيد وشهدوا عند عودهم عشرة م رجائهم ميتين: رحماك أيتها السيدة الجول فإن عشرة من رجالنا نازلون على الشاطئ بالقرب من مغنا على أربعين يوماً ويوم من هذا الحجر كتب سنة ١٣٦٢.

الروائح والمضم

كل الناس يعلمون أن الروائح التي تنبعث من الطعم اللذيذ تفتح شهوة الطعام والروائح المنبعثة من الطعام الكريه تصد النفس وتمنع القابلية. وقد استدل أحد أطباء الولايات المتحدة بالبحث والتجارب أن الروائح والعطور تؤثر كل التأثير في بعض الحواس وذلك أن بعض الأشخاص لا يتأتى لهم أن يقعدوا في غرفة فيها باقة من الجنة (ليلك) أو الياسمين وأن أناساً يصابون بالصداع أو القىء (القيء) إذا استشقوا الياسمين البري أو وردة وأن أكثرهم يصابون باضطرابات معدية إذا دخلوا بيت تربية النبات وكان فيه التوم (دوار الشمس) وذكر أن امرأة متوسطة العمر كانت تصاب بوجع في القلب كلما كانت تشم رائحة الخروف والسك وكانت تتناول منه مسرورة على شرط أن تمد أنفها حتى لا تشم رائحته ومن ذلك أن كثيرين يصابون بالقرف إذا قدمت لهم صفحة من لحم كريد عندما يشنونه. وقال أن له زبوناً كان ضابطاً في حرب الانفصال كلما رأى البصل يصاب باضطراب في المعدة لأنه كان يقدم له في تلك الحرب بصل محضر تحضيراً رديئاً فيتناول منه متكارهاً مضى على ذلك خمس وأربعون سنة وهو لا يزيد للبصل إلا كراهة. وأفضل دواء لمن يصاب بذلك أن يعتمد إلى أخذ المقلات ولكن يجب

ما أمكن التوقي من الروائح الدافعة فالجيد منها نافع والكريه ضار حتى أن بعض الشرقيين يعدون قبل الطعام إلى استنشاق الطيوب والعطور عندهم بأنهم بذلك يحسنون أعصابهم وهضمهم.

الطلاق

انتشر الطلاق في الولايات المتحدة وسويسرا انتشاراً هائلاً بحيث أصبح المطلقون والمطئنات كثيرين جداً ويقال أن السر في ذلك فساد قوانين الزواج حتى اختل نظام الزوجية وانتشار العيشة الفردية وقلة التدين ويؤكد من يعلنون هذا الحال بقلة الدين أن بعض المقاطعات في الولايات المتحدة يقل فيها الطلاق جداً لأن أهلها متدينون ولا تزال تغلب عليهم التقاليد والأوامر.

غنى أشرف الإنكليز

في اللجنة الباريزية بحث في حال الأشراف والفقراء في انكلترا جاء فيه أن فيها ٢٧ دوقاً ما عدا الدوقات الذين هم من دم منكي يمكنون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المنكة على التقريب. ويقدرّون مساحة أراضي الدوق دي سوترلاند بـ ١٠٠.٣٥٨.٥٤٥ فداناً أو نصف مليون هكتولتر بلغت وارداتها منذ عشرين سنة ١٤١.٦٦٧ ليرة انكليزية ويحيى بعده الدوق دي بوكوش وأراضيه تبلغ نصف مليون فدان ولكن وارداتها أكثر أي أنها تبلغ خمسة ملايين ونصف من الفرنكات ويحيى بعدهما دوقات ريشموند وديفونشير وهاملتون واتول وأرجيل وبورتلاند ونورتومبراند ومونتروز وهم يمكنون مئة ألف فدان تأتيهم بنحو مليون فرنك من الواردات ثم يحيى بعدهم الدوقات الصغار ولا يقل ما يملكه الواحد عن عشرة آلاف فدان.

ويتألف من هؤلاء الدوقات وألقابهم وغناهم أمّن أساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد ولطالما كان هؤلاء الأشراف منذ القديم موضوع احترام انكليترا ولكنهم بما يملكون من هذه الأراضي الواسعة أصبحوا لا يعرفونها ولا يخدمونها فصحت فيهم آية التوراة إن الذين يضيفون من بنيكم حقلاً إلى آخر تنتهي بهم الحال أن يكونوا نساءً مترهدين. نعم تركت حقوقهم وغاباقتهم بدون أن تتعهدوا الأيدي تركوها لتكون مترهاً ومجالاً للإرتياض والصيد في حين أن ألوفاً من الأيدي تنقطع عن العمل لقلة الأراضي لديها ويتحكم الأشراف في مزارعهم ومزارعهم تحكماً غريباً فإن الدوق ديفونشير لا يسمح لمزارعيه أن يعلقوا في أراضيهم إعلانات يتناولون أجرتها بضعة قروش من المعنن والدوق دي فيف لا يرضى أن يبقى أحد في الفندق القريب من مقره عندما يجيء إليه.

فعنى انكليترا المشهور هو في أيدي الأسرات المتنازعة المختارة من طبقة الأشراف وأغنياء الطبقة الوسطى والرفاهية وقف عنهم وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم من أهل الطبقات الأخرى كما هو الحال في فرنسا. وقد بلغ عدد المعوزين في انكليترا ٩٥٩، ٨٤٨ أي شخصاً واحداً من كل سبعة وثلاثين شخصاً محتاج أن تعوله الحكومة أو جمعيات الإحسان وفي لنرا وحدها من البائسين ١٢٣، ٥٤٥ ولا يزال عددهم في ازدياد في الولايات والعاصمة فقد كان منذ سنين معدل الفقراء في بريطانيا العظمى ٥٧، ٩ في الألف فأصبح في أواخر العام الماضي ٥٨٦ في الألف.

ويستدل من هذه الأرقام أن الأمة الانكليزية تعيش منذ سنين برأس ماله وإذا ظلت على هذا الحال تفلس إفلاساً اقتصادياً واجتماعياً وأن الحكومة من حيث السياسة دلت بذلك

عنى أنها لم تستطع أن تحكم لتوسع على الأمة راحتها وسعادتها بل تركتها بلا سلاح في معترك الحياة تغني نفسها وتفقر كذلك. والمبب لوحيد في هذا الفقر اضطراب الناس إلى الانقطاع عن العمل بداعي حرية التجارة. ويقول آخرون أن المبب في هذا الشقاء هو مسألة تقسيم الأراضي فأملأك الأشراف مهنة لا يسغاد منها وتلك الأيدي العاملة تنقطع اضطراباً عن عملها لأنها لا تجد ما تعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل في تلك الأراضي الواسعة لو وزعت عليها توزيعاً معقولاً فأشراف انكثروا هم العائق الكبير في كل إصلاح وارتقاء وأملأكهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون ناء الراحة العامة فعينهم التبعة العظى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعى الذى يزيد يوماً عن يوم.

ومنذ عشرين سنة فتحت طريقة جديدة لإدخال لوردات جدد علاوة على القديم منهم وهم من كبار أرباب المعامل والمالين مثل الدوق دي نورفولك ووارداته السنوية ٣٧ مليون فرنك ما عدا الأربعمئة فدان التى يملكها في حى وستمنستر في لندرا وريعها مليون جنيه والدوق دي بدفور وريع أراضيه البالغة ٢٥٠ فداناً في لندرا هو مليون جنيه والنورد نورثامبتون وريع أملاكه مليوناً ليرة أفرنسية وغيرهم كثيرون. وهكذا أصبح دوقات انكثروا أرباب الاحتكار للثروة وهم سبب شقاء الطبقات ومنهم ضرر البلاد.

ري العراق

خطب السر ويليم وينكوكس في اجتماع الجمعية الجغرافية المنكية في لندن: في العراق ماضيه وحاضره ومستقبله خطاباً حضره كثير من سواة الانكليز وعلمائهم فقال أنه لما انتدبت الحكومة العثمانية الجديدة لري العراق وإصلاح أقيية دجلة والفرات وبيان الطرق اللازمة لعمران تلك البلاد بدأ يدرس طرق الري القديمة وما يلزمها من الإصلاح فاستفاد من ذلك فائدتين أساسيتين الأولى كثرة نفع الماء الحالي مما يحمله عادة كالوحد والحكاكات والثانية لزوم اتخاذ الاحتياطات لمنع الفيضانات وأن الأثني عشر مهندساً الذين ساعدوه في بغداد كانوا يبنوا له أنهم قادرون على القيام بهذين العنين فعرضوا على الحكومة قبل ذلك طريقة للتخلص من فيضان ماء الفرات حتى مهبط فر بيزون القديم وقدر المال اللازم لذلك بثلاثمائة وخمسين ألف ليرة والوقت بثلاث سنين وبذلك تصبح الأرض قابلة للزراع مضاعفة ومحصولات الحنطة تبلغ ثلاثة أضعاف أما المزارعون اليوم فإنهم لا يجراون على زرع الأراضي باليدور اللازمة وكذلك هم يحسبون أنهم يخسرون كل شيء في السنة السالفة.

ومشروع اليوم هو القناة الوسطى الكبرى في أرض الدلتا اللازمة لري ٣، ٠٠٠، ٠٠٠ فدان من أحسن أراضي العراق لريها بماء نقي ففي الشمال الغربي من بغداد بين دجلة والفرات انخفاض في الأرض يسمى بحيرة عكار كف ومساحتها إذا كان ماؤها على أقل درجاته أربعون ميلاً مربعاً وإذا كانت مملوءة ثلاثمائة ميل مربع وانخفاض سطحها عن الفرات خمسة وثلاثون قدماً وعن دجلة عشرة أقدام وإلى هذا الانخفاض من الأرض يأتي فر الصقلاويه وهو فرع من الفرات عرض قناته ٢٤٠ قدماً وعرضها ٢٥ قدماً وينقسم عند وصوله إليها من الغرب إلى نحو عشرين فرعاً.

وعند اتصاله بالفرات يلزم أن بوضع له معياران قويان يعينان الماء المار فيه وكذلك بوضع لنفريات سد بعد مفرق فرع الصقلاوية لتظيم مجرى ماء الفرات نفسه. إن ما تقدم من الأعمال يؤمن وصول الماء من الفرات وأما من جهة دجلة فإن المهندسين ارتأوا وضع سكر في البند عند حاجز عكار كف وهذه الوسطة يمكن أن يحفر له فرع لري الأرض المخصصة الواقعة شمال بغداد ويصنع لهذا الفرع منفذ إلى البحيرة المذكورة فيحفظ قناته من الوحل ويصل دجلة بالبحيرة وهكذا يحصل الزارعون على ما يلزمهم من الماء من النهرين المنصبين في تلك البحيرة من غربها وشمالها وأما من جهتها الجنوبية والشرقية القريبة من بغداد فيحفر قناة توازي الضفة دجلة اليسرى وتنتهي في الحي وهذه القناة تكفي لري ستة ملايين فدان.

أما الوحل الشديد المضر ومدته لا تتجاوز خمسة عشر يوماً في السنة فإنه يرسب في البحيرة. ووينكوكس يقترح أن تسمى الضفة اليسرى من هذه القناة باسم أول حاكم دستوري في البلاد العثمانية وهي تكون حاجزاً يحمي البلاد من فيضانات دجلة وعليها تمر سكة حديدية تنقل محصولات البلاد وهكذا تعود مدن صبارة وكوثا ونيل ونفوز وأرخ وتل سكرخ وتل لول إلى عراقلها.

وبعد أن بين الطرق التي تحمي البلاد من الفيضانات وكيف أن المباشرة تكون بري ثلاثة ملايين فدان من الأرض تغل سنوياً مليون طن من القمح ومليون بالة قطن ذكر طريقة إيصالها لأسواق التجارة مع ملايين من الأغنام ومئات الألف من الماشية التي يمكن أن تعيش في الدلتا وقد فاوض تجار بغداد فوجدتهم متفقين على أن تأخر البلاد ناشئ في الأكثر عن انقطاع المواصلة مع الغرب وأن محصولات العراق اليوم وهي الغنم والبقر

والجاموس والصوف وعرق السوس والحنطة والشعير مطنوبة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط وفي أوروبا وكل ما تحتاج إليه البلاد يمكن أن يأتيها من الغرب لذلك لا ينقصها إلا إحداث سكة حديدية تصل بغداد بالبحر المتوسط من أقرب الطرق وأرخصها ومثل هذا الخط يكون مخرجه قرب صور أو صيداء وطوله من بغداد إلى دمشق خمسمائة وخمسون ميلاً تكلف منيوي ومائتي ألف ليرة. اهـ (مغرباً عن جريدة التيسر بقلم أحد أصدقائنا).

ثقل الأيام

يقال أن فلاناً أثقله كر الغداة والعشي وقد أثبت أحد العلماء أن المرء كلما تقدم في السن زاد جسمه خفة فالكبد ووزنه العادي في البالغ ١١٦٥ غراماً لا يبلغ وزنه في الرجل الشيخ أكثر من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ غرام ووزن الكلية في البالغ ١٨٠ غراماً ولا تكون كلية الشيخ أكثر من ١٠٠ غرام. أما القلب فلا يزال ينمو بنمو السن فيبلغ زهاء ألف غرام في الشيخ أكثر من الفتى وكلما شاخ المرء كبر قلبه وربما كان ذلك ناشئاً من أسفه على السنين تمر به فتقربه من أجله.

دارسو العلوم

بلغ عدد الطلبة الذين قيدوا أسمائهم سنة ١٩٠٨-١٩٠٩ في جامعة العلوم الباريزية ٢١٥١ طالباً منهم ١٥٧٧ فرنسويّاً و٤٢٧ روسياً و٢٧ رومانياً و١٥ من جمهوريات أميركا و١٣ نمساوياً مجرياً و١٣ عثمانيّاً و١٠ ألمان و١٠ يونان و٨ من الولايات المتحدة و٨ بنجيكين و٦ سويسريين و٥ سويديين ونرويجيين و٤ صربيين بلغاريين و٤ مصريين و٤ إيطاليين و٣ من كل من الجزائر البريطانية وهولاندة وشيلي و٢ من كل اسبانيا

والبرتغال والصين وواحد من كل الدانيمرك وإيران وسورية والراس والهند الانكليزية و٨٠ طالباً أجنبياً في سائر الجامعات منهم ٥١ في الطب و٢١ في الصيدلية و٥ في الأدب و٣ في الحقوق.

معمل الفولاذ

انشأوا على ٤٠ كيلومتراً من شيكاغو على شاطئ بحيرة مشيغان في مدينة اسمها طاري أعظم معمل للفولاذ في العالم وهو يحوي من التانير ما يخرج في اليوم أربعة آلاف طن وتقدر أكلاف هذا المعمل بعشرين مليون ليرة وحجم الغاز الذي يخرج في الساعة من كل تنور عالٍ يينع ثمانين ألف متر مكعب وفيه ١٧ محركاً بالغاز تبلغ قوتها ٢٥٠٠ حصان ومجموع ما يصدر من هذا المعمل في السنة ٢، ٧٠٠، ٠٠٠ طن

مخترع المعكرونة

قالت إحدى الكاتبات الإيطاليات إن تاريخ اختراع المعكرونة يرد إلى سنة ١٢٢٠ يوم خميس الجمد وهو اليوم الذي تاب فيه في بلمرة ونابولي الملك الصالح فريدريك الثاني ففي ذاك اليوم اخترع أحد علماء الكيمياء من الطينان واسمه سيشو هذه المعكرونة فسرقت منه سر هذه الصناعة امرأة اسمها لاجوفانلادي كانزيو فاستعملتها من مواد كثيرة وأجادت صنعها وتناول الملك فاستطابها ثم الأسرة المالكة وأهل البلاط والأشراف والنبلاء والفرسان وبعد أن عمت إيطاليا انتقلت إلى أوروبا بأسرها بل إلى العالم كله.

يقول أحد أطباء الأيدي في باريز أن الأظافر العريضة والقصيرة هي دليل كاف على الشدة في الخلق والقسوة والغضب ويكون صاحبها متناقضاً في أفكاره وعيماً للعناية. وإذا كانت الأظافر طويلة ومنبسطة تدل على كبر العقل والتصور وعلى الحكمة وتوازن الدماغ. وإذا كانت مستطيلة ومنفخعة تدل على ميل صاحبها إلى الشعر والفنون على اختلاف أنواعها وعلى كسل غريزي فيه. وإذا كانت محدبة كالمخالب فهي دليل نفاق حيث شديد قاس كما تدل على القسوة والميل إلى القتل ومن كانت أظافره رخوة فدل على ضعف جسمه وعقده في حين أن من يأكلون أظافرهم كثيراً ما يكونون من المائنين إلى الخلاعة. ومن كانت أظافره متونة تدل على صحة وفضيلة وسعادة وميل عظيم للكرم.

معادن العالم

أحصى أحد العارفين ما استخرج من معادن الرصاص والنحاس والتوتيا الزنك سنة ١٩٠٧ فكانت ٩٩٢ ألف طن من الرصاص و٧١٣ ألف طن من النحاس و٧٣٣ ألف طن من التوتيا ومعدل سعر الطن من المعدن الأول ٤٨٢ فرنكاً وربع ومعدل سعر الطن من الثاني ٢١٧٧ فرنك و٥٥ سنتياً ومعدل سعر التوتيا ٣٣٧ فرنكاً ويوزع المستخرج من الرصاص على ست ممالك فيصيب الولايات المتحدة ٣٤١ ألف طن وإسبانيا ١٨٦ ألفاً وألمانيا ١٤٠ ألفاً وأستراليا ٩٧ ألفاً والمكسيك ٧٢ ألفاً وباكستان ٢٠ ألفاً ويصيب الولايات المتحدة من النحاس ٤٢١ ألف طن وأوروبا كلها ١٤٣ ألفاً وباكستان ٧٢ ألفاً وألمانيا ٣٢ ألفاً واليابان ٤٥ ألفاً وأستراليا ٣٢ ألفاً ويصيب الولايات المتحدة من التوتيا ٢٢٧ ألف طن والبنجيك ١٤٥ ألفاً الخ.